مختصر

حضارة العرب

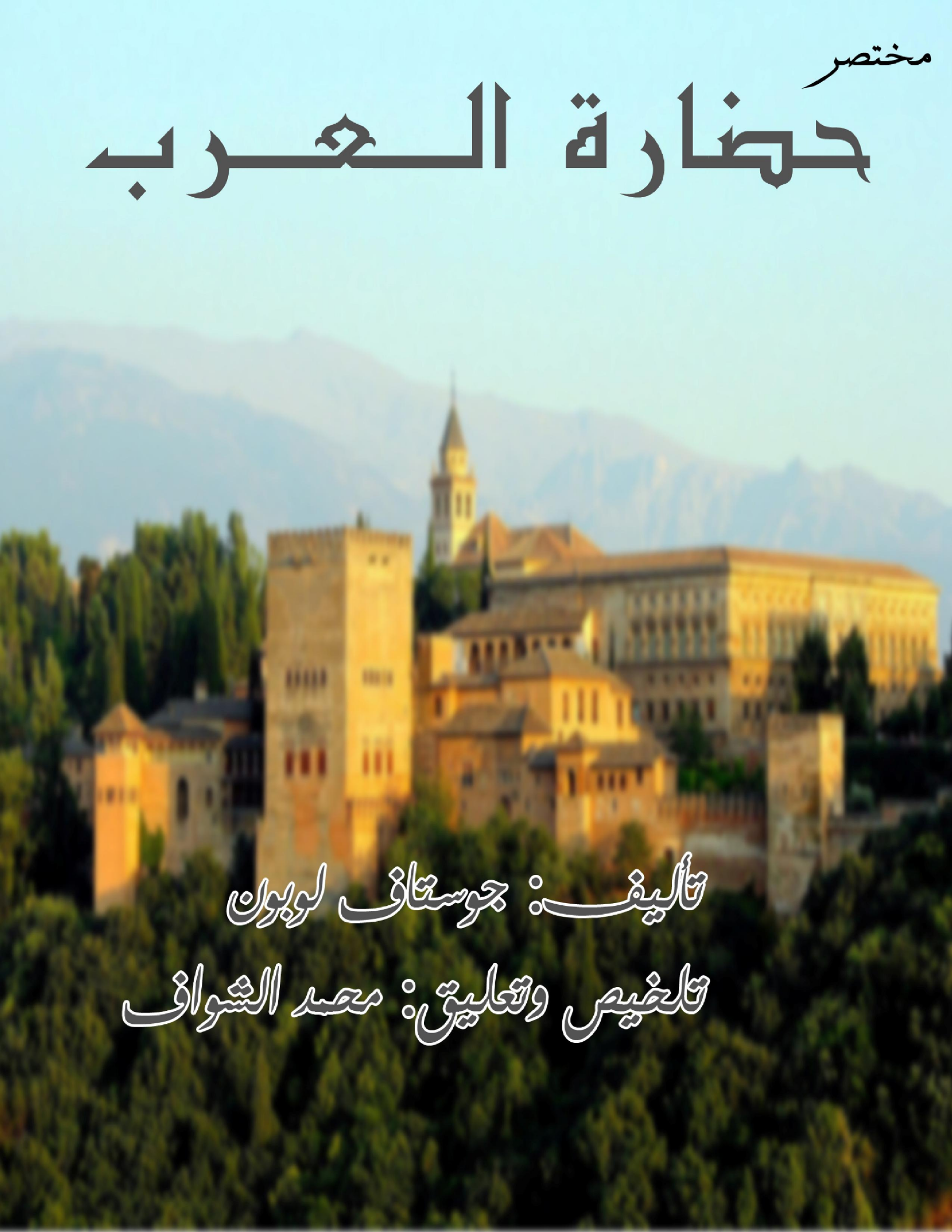

تأليف: جوستاف لوبون

تلخيص وتعليق: محمد الشواف

مقدمة 3

الباب الأول:

بعض آثار حضارة العرب القديمة 4

اليهود والعرب 8

الجلاّد السوريّ 11

عرب مصر 12

مسلمى الصين 13

الباب الثانى:

دسائس لوبون حول الإسلام دينا ومحمد نبيا 14

خلاصة تاريخ العرب 23

الباب الثالث:

الفصل الأول: العرب فى سورية 33

الفصل الثانى: العرب فى بَغْداد 36

الفصل الثالث: العرب فى بلاد فارس والهند 40

الفصل الرابع: العرب فى مصر 41

الفصل الرابع: العرب فى إفريقية الشمالية 46

الفصل الرابع: العرب فى إسبانية 48

مقدمة:

هذا تلخيص لأهم ما جاء فى كتاب حضارة العرب لجوستاف لوبون، مع التركيز على الأحداث التاريخية والمعلومات الهامة، مما يعطى صورة واضحة ومختصرة عن حال العرب فيما بين القرنين السابع والخامس عشر الميلاديين. وما استوقفنى ولزم التعليق عليه قمت بكتابته ملتزماً بالإطار الأدبى والنقدى..

أتمنى أن يساعد هذا العمل فى توضيح ورسم صورة صحيحة عن تلك الفترة الهامة من تاريخ العرب والمسلمين...

محمد الشواف

الباب الأول

بعض آثار حضارة العرب القديمة

عندما نتحدث عن حضارة العرب فنحن أمام شخصيتين؛ الأولى: العربى المتحضر، والثانية: الأعرابى المتنقل بحثا عن الكلأ، ما يعنى به لوبون هو العربى المتحضر الذى تُنسب إليه إقامة الحضارة، أما الأعرابى (البدوى) فلا شأن له بالحضارة فهو منذ القدم وحتى الآن يعيش حياة جلفة لا تمدن فيها .

يقول بلغريف عن أهل جزيرة العرب الذين عاش بينهم زمنا طويلا، ويعدهم من أعظم أمم الأرض كرما ونبلا: "إن أهل الحضر من العرب من أنبل شعوب الأرض وأكرمهم، وهم جديرون بهذا المديح، وقد أكثرت من السياحة فى أنحاء العالم، وكانت لى صلات وثيقة بمختلف الأمم الإفريقية والآسيوية والأوربية، فظهر لى أن الأمم التى يفضل أفرادها على سكان جزيرة العرب الوسطى قليلة إلى الغاية"

.....

ولدحض الآراء التى تقول أنه لا حضارة للعرب قبل محمد ومن أبرز الشخصيات التى اعتنقت هذا الرأى العلامة الفرنسى رينان الذى قال: (لا مكان

لبلاد العرب فى تاريخ العالم السياسى والثقافى والدينى قبل ذلك الانقلاب المفاجئ الخارق للعادة الذى صار به العرب أمة فاتحة مبدعة، ولم يكن لجزيرة العرب شأن فى القرون الأولى من البلاد حين كانت غارقة فى دياجير ما قبل التاريخ، ولم يظهر بأسها وبسالتها إلا بعد القرن السادس من الميلاد)

يرى لوبون هذا الرأى فاسدا للوهلة الأولى، فهو يرى، وهو الدارس والباحث الجاد فى علم الاجتماع، أنه لا يمكن لأمة ، أو عرق، أن تُحدث انقلابا بهذا الحجم وتؤسس حضارة هى من أعرق الحضارات على مر التاريخ دون نمو تدريجى ونضج واستواء فكر لتكون قادر على فتوحات كتلك التى عظيمة قادها أصحاب النبى محمد، وتؤسس حضارة عظيمة مميزة لها دون النقل الأعمى من الغير.

ولا يكتفى لوبون بهذا الرد النظرى، لكنه أيضا يورد الشواهد التى تثبت صحة رأيه ومن تلك الشواهد العلاقات التجارية بين جزيرة العرب وحضارات العالم القديم، ومن المعروف أن العلاقات التجارية دائما تؤدى إلى انفتاح ثقافى يساعد على بناء حضارة، بل يمكننا القول أنه لا حضارة بدون تجارة..

ثم يذكر لوبون حضارة مثل حضارة سبأ، التى نسمع عنها فنعتقد أنها محض خيال وهى حققية تثبتها الشواهد والآثار فى بلاد اليمن:

(ذكر أصحاب التاريخ أن أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها

وأغدقها وأكثرها جنانا وغيطانا وأفسحها مروجا، بين بنيان وجسر مقيم وشجر موصوف ومساكب للماء متكاثفة وأنهار متفرقة، وكانت مسيرة أكثر من شهر للراكب المُجدّ على هذه الحال وفى العرض مثل ذلك، وأن الراكب أو المار كان يسير فى تلك الجنان من أولها إلى أن ينتهى إلى آخرها لايرى جهة الشمس ولا يفارقه الظل لاستتار الأرض بالعمارة والشجر واستيلائها عليها وإحاطتها بها، فكان أهلها فى أطيب عيش وأرفه وأهنأ حال وأرغده، وفى نهاية الخصب وطيب الهواء وصفا الفضاء وتدفق المياه وقوة الشوكة واجتماع الكلمة ونهاية المملكة، فكانت بلادهم فى الأرض مثلا، وكانوا على طريق حسن من اتباع شريف الأخلاق وطلب الفضائل على القاعد والمسافر بحسب الإمكان وما توجده القدرة فى الحال، فمضوا على ذلك ما شاء الله من الأعصار لا يعاندهم ملك إلا قصوه ولا يوافيهم جبار فى جيش، فذلت لهم البلاد وأذعن لطاعتهم العباد فصاروا تاج الأرض)

وعن مدينة الحيرة:

(وكانت قصور الحيرة مؤثثة بأثمن الأثاث وكانت حدائقها مكسوة بأعزّ الأزهار، وكانت قواربها الأنيقة الساطعة الأنوار تشق الفرات ليلا حاملة أغنى الأمراء وأمه الموسيقيين، وأطلق العرب لأنفسهم عنن الخيال فقصوا علينا أنباء القصور الساحرة العجيبة التى أضحت، لا ريب، أجمل مساكن الشرق وأطيبها) وقد عاشت دولة الحيرة أربعمئة سنة..

وعن مدينة مأرب:

يروى إسترابون عن أرتيميدور (إن قصورها ذات سقوف مزخرفة بالذهب والعاج والحجارة الثمينة وذات أثاث فاخر وآنية منقوشة) ورأى إراتوستين أن بيوتها تشابه بيوت مصر فى جموعها.

اليهود والعرب

يذكر لوبون فى صفحة 65:

(... ولا جرم أن الشبه قليل بين العربىّ أيام حضارته واليهودى الذى عُرف منذ قرون بالنفاق والجبن والبخل والطمع، وأن من الإهانة للعربىّ أن يُقاس باليهودى، ولكن، لا تنس أن طرق الحياة الخاصة التى خضع اليهود لحكمها منذ قرون كثيرة هى التى أنشأت منهم عرقا ذليلا غير محترم، وعندى أن كل أمة تكون عرضة لمثل ما أصاب اليهود، ولا تعرف عملا لها غير التجارة والربا، و تُحتقر فى كل مكان، وتنتقل إليها تلك الغرائز المنحطة بالوراثة المتتابعة مدة عشرين قرنا، وتتأصل فيها، تصير كما صار إليه اليهود لا محالة.

ويذكر فى الحواشى: (1) إن العربى مع إقراره لليهودى بالقرابة، أول من يحمر وجهه خجلا منها، وما شاهدته فى رحلاتى الكثيرة التى قمت بها فى ألمانية وبولونية وغيليسية وروسية والشرق من الاحتقار لليهودى لا يُذكر بجانب كره العربى له، فاليهودى فى نظر العربى نوع من الحيوان النجس الذى يُباح أن يُصنع به كل شيء، و لا يخاطب العربى فى الجزائر يهوديا إلا بعد أن يناديه: "يامنتن بن منتن"، والعربى قادر على فرز اليهودى من غيره

مهما حاول اليهودى أن يتنكر، وقد تحققت ذلك حين قدر الاشتراك فى مؤتمر من الأوروبيين عقد فى الجزائر حيث كان أناس من العرب يدلوننى على يهود من المتعذر تمييزهم بسحناتهم.

ويُعامل اليهود فى البلاد العربية المستقلة عن نفوذ الأوروبيين بأسوأ مما يُعامل به الحيوان ، وإليك كيف وصف مسيو كوت فى سنة 1855 حال اليهود فى مراكش:

" يحرم على اليهودى أن يلبس غير الثياب السود التى هى رمز اللعنة والشقاء، ويحظر عليه ركوب الخيل، وإذا مرّ أمام مسجد أو زاوية أو ولى أو مرابط أو شريف وجب عليه خلع نعليه وحملها بيده، ويمتنع على اليهودى أن يدخل مقابر المسلمين، وتجلد العريفة المسلمة اليهودية فى الأماكن العامة لأتفه الأسباب، وإذا ما ضرب مسلم يهوديا وجب على اليهودى ألا يدافع عن نفسه بغير الفرار أو الاستعطاف، وإلا أمكن قتله، وما أكثر مايرجم صبيان العرب شباب اليهود ويضربونهم بالعصى ويصفعونهم ويخدشونهم، وشباب اليهود يركعون ويتلوون ويتلمسون الخلاص ويرجون النجاة من غير أن يقدروا على ضرب أحد من أولئك الصبيان أو جرحه.

وما تقدم وإن كان يقع فى داخل مراكش، لا يحدث مثله فى طنجة حيث يقيم قناصل الدول الأوروبية الذين يحتمى اليهود بهم على العموم، ولما أتيت

تلك المدينة العجيبة وزرت واليها وصحبنى ترجمان القنصلية البلجيكية اليهودى لاقى هذا الترجمان من الوالى كل الرعاية"

كما يقول "غوستاف لوبون" في مصنّفه الضخم "اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى" ما نصه:

"ظلّ اليهود - حتّى في عهد ملوكهم - بدويِّين أفّاكين، مغيرين سفّاكين، مندفعين في الخصام الوحشي، فإذا ما بلغ الجهد منهم ركنوا إلى خيال رخيص، تائهة أبصارُهم في الفضاء، كسالى خالين من الفكر كأنعامِهم التي يحرسونها."

وفي مقام آخر يقول لوبون : "لَم يجاوز قُدماء اليهود أطوار الحضارة السِّفلى التي لا تكاد تميز من طور الوحشية، وعندما خرج هؤلاء البدويُّون الذين لا أثرَ للثقافة فيهم من بادِيَتهم ليستقرُّوا بفلسطين، وجدوا أنفُسَهم أمام أُمَمٍ قويّة متمدينة منذ زمن طويل، فكان أمرُهم كأمر جميع العروق الدنيا التي تكون في أحوال مماثلة، فلم يقتبسوا من تلك الأمم العليا غير عيوبِها وعادتها الضارية، ودعارتها وخرافاتها."

الجلاّد السورىّ

.. ويتصف سكان المدن من السوريين بالذكاء ولين العريكة والمكر والمخادعة على العموم، وقديما نعت الرومان السوريين بأنهم وُلدوا للعبودية، والسوريون، وقد رضوا بكل حكم أجنبى أصابهم منذ قرون كثيرة، لم يبق من نشاطهم سوى منازعاتهم الدينية، وقد عُرفوا، فيما لا يمس عقائد الدين، بإذعانهم التام وانقيادهم المطلق لكل ذى سلطان مما لايتصوره أوربىّ، ويمكن القاريء أن يقف على ذلك من القصة الآتية التى رواها مسيو دوغو غويه عن أوربىّ كان فى سورية أيام القمع الذى وقع بعد ملاحم سنة 1861:

"روى ضابط معلم أوربىّ كان فى خدمة الترك أنه شاهد الأمر الآتى، وهو: أن أحد الجلادين الكثيرين فى ذلك الوقت كاد يُتم عمل نهاره، وأن الكلاّب كان عاليا والكرسىّ واطئا فلا يوصل إليه به، وأن مسلما مسنا مر من هنالك راكبا حمارا حاملا قطعة لحم، فأمره الجلاد بالوقوف فأطاعه فترجل مادّا عنقه للشنق طائعاً ظانا أن أجله جاء، فأفهمه الجلاد أنه لم يقصد شنقه، وإنما يريد حماره ليصعد فيه رجل محكوم عليه بالموت ويوضع الحبل فى عنقه، فلما وضع الجلاد الحبل ونخس الحمار هوى ذلك المحكوم عليه بالموت، فركب الشيخ الهرم حماره بعد أن حمل قطعة اللحم لائذا بالفرار"

عَرَبُ مِصْرَ

عرب مصرنتيجة توالد سكان مصر الأصليين والعرب الذين فتحوا مصر فى سنة 640 بقيادة عمرو بن العاص، وعرب مصر ليسوا عربا بدمهم، وإن كانوا عربا بلغتهم ودينهم، فقد دلنا علم وصف الإنسان على أن العنصر العربىّ الغالب لم يلبث أن طغى عليه العنصر المصرى المغلوب الأوفر عددا والأكثر احتمالا لجو مصر المرهوب، وأن العناصر المتداخلة لم تلبث أن توارت، وأن المصرى الحضرىّ العربىّ بدينه ولغته رجع ابنا لقدماء المصريين فى زمن الأهرام، أى ذا سعة فى كتفه ووجهه وغلظٍ فى شفتيه ونتوءٍ فى وجنتيه ومشابهةٍ للمثل المنحوتة فى قديم الآثار.

ولم يكن عرب النيل الحضريون أبناءً لقدماء المصريين بتقاطيعهم فقط، بل ورثوا عن هؤلاء أخلاقهم ولطفهم وأدبهم الجمّ أيضا، وهم يخشون، لما عانوا من ضروب الاستبداد منذ قرون، جميع السادة، ولا سيما الأوربيون، فقد استطعت، حين ذاعت الأنباء فى القاهرة بأن مصر العليا مضطرمة بالعصيان والملاحم، أن أجول منفردا فى القرى القائمة على ضفتىّ النيل من غير أن يصيبنى أذًى.

مسلمى الصين

ينقل غوستاف لوبون عن دابرى دوتيرسان : "إن المسلمين فى الصين متحدرون من الكتيبة المؤلفة من أربعة آلاف جندىّ الذين أمدّ بهم الخليفة أبو جعفر الإمبراطور سوتسونغ فى سنة 755 م حين شقّ أنولوشين العصا، والذين سمح هذ العاهل لهم بالإقامة بأهم مدن الصين مكافأةً لهم على ما قاموا به من الخدم فتزوجوا صينيات، وكان بهم أصل مسلمى الصين"

ثم فى موضع آخر : "إنهم يتصفون بروح الصدق والشرف على العموم، وإن من يتقلد منهم بعض مناصب الدولة يحترمه الأهلون ويحبونه، وإن من يتعاطى التجارة منهم يتمتع بالسمعة الطيبة، وإنهم يؤتون الصدقات كما يأمر الدين، وإن الناظر إليهم يخيل إليه أنهم يؤلفون أسرة كبيرة واحدة يشد بعضها أزر بعض. وإنهم، مع طابعهم الخاص، استطاعوا بفضل نباهتهم وإخائهم الدينىّ وتسامحهم أن يلائموا بيئتهم وأن ينموا ويكثروا، خلافا لدُعاة الأديان الأجنبية الأخرى الذين أرادوا أن يكون لهم شأنٌ فى الصين فلم يتقدموا خطوة حتى الآن"

الباب الثانى

دسائس لوبون حول الإسلام دينا ومحمد نبيا

لتوضيح رأى لوبون، إليك مقتطفات من كتاب "حضارة العرب" الباب الثانى الذى صب فيه لوبون رأيه الغريب المنحرف حول الإسلام:

حول ميلاد محمد : ".. ورأى العرب أن يُقرنوا ميلاد زعيمهم الأعظم بالآيات، فرَوَوْا أن العالم اهتز لولادته، وأن نار المجوس المقدسة خبت، وأن شياطين الشر دُحرت من أعلى الشهب، وأنه تصدع من أبراج إيوان كِسرى "ملك الملوك" أربعة عشر برجا إيذانا بقرب انهيار دولة الفرس العظمى"

وقد نُحيل هذا الأمر إلى خيال العرب الواسع، ونوافق لوبون فيه، خاصة أن هذا من طبائع العرب وهم رواد أدب وخيال..

حول وفاة جده بعد أمه : "..ولكن ملائكة الرحمة التى أرادت مضى محمد قدما، صبت عليه، وهو صغير، أنواع المصائب التى يُصاب بها الإنسان عادة درجة درجة، فقد مات جده بعد وفاة آمنة بسنتين، وكفله عمه التاجرالذى كان يُسافر، ولم يجد محمد له غير نفسه حاميا بعد قليل."

النبىّ والراهب النسطورى ***: وقد اقتبس لوبون من بعض الروايات المشكوك فيها لقاء محمد بالراهب النسطورى الذى يعيش فى الشام، وأن محمد تعلم على يديه التوراة:*** **".. وتقول القصة أن محمد سافر مع عمه إلى سورية مرة، وتعرف فى بصرى براهب نسطورى فى دير نصرانىّ، وتلقى منه علم التوراة. ولما بلغ محمد العشرين من عمره اشترك فى حرب بين قريش وقبيلة أخرى، فأظهر فيها، كما قيل بصيغة التأكيد، براعة حربية تجلت فيه بعد زمن بعيد. ونال محمد شهرة فائقة، وعُرِف برفقه وصدقه، فلقبته قريش بالأمين. وإذا أضيف إلى شهرته حُسن صحته علمنا السر فى عطف خديجة، التى كانت أرملة غنى، عليه وتفويضها أمور تجارته إليه، وتهيأ له السفر إلى سورية بذلك والاجتماع مرةً أخرى ثانية بالراهب الذى أطلعه على علم التوراة سابقاً، وتزوّج بعد رجوعه من سورية، وكان عمره خمساً وعشرين سنة، خديجة الأيم المثرية البالغة من العمر أربعين سنة، وخديجة هى أولى زوجاته، ولم يتزوج امرأةً أخرى فى حياتها"**

وتلك الدسائس التى حاول لوبون وغيره دسها فى كتبهم، لهى واهية كل الوهى، فليس دليل على تعلم النبى الأمى على يد راهب، وأمر التعلم يحتاج فترة طويلة، ولاسيما إن كان علم التوراة واللاهوت، وكان لقاء محمد بالراهب النسطورى لا يتعدى سويعات قليلة خلال رحلة النبى إلى الشام، ولا

يوجد دليل فى السيرة على مايقوله لوبون، ولكن عندما ضاقت به الأدلة الموثوقة التجأ إلى الأحاديث المشكوك فيها المأخوذة من الإسرائيليات والمحدثين الكذابين، فقط ليثبت بها وجهة نظره، التى لاتستطيع أن تستوعب أمر النبوة.

"ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون "

لكن علينا أن نعى جيداً أنه لولا إلحاد لوبون (ونكرانه لأى صورة من صور الوحى سواء على النبى محمد أو غيره من الأنبياء، وهو قد أقرّ بإلحاده فى أحد فصول الكتاب) ما كان قد جانب الحياد التام والصدق الذى لم ينتهجه معظم المستشرقين الدينيين الناكرين للإسلام دينا وحضارةً معاً أو الملحدين الحاقدين على حضارة العرب، حياد على المستوى المادى والحضارى، أما على المستوى الروحى فلا يرقه لوبون ولا غيره من الملحدين وهو أمرٌ يتعلق بإيماننا الذى لا يحتاج لشهادة هؤلاء، أى أن إلحاده جاء فى مصلحتنا ليتجنب العداء للإسلام دينا وحضارةً ويلزم الحياد المهنىّ، فعلينا إذاً أن نعرِض عن

مهاتراته تلك ونلتفت إلى تلك الصورة الصادقة الرائعة التى رسمها لوبون عن الحضارة العربية بموضوعية ومهنية، فللأسف لم تتوفر فى وطننا العربى خاصة فى زمن لوبون تلك الخصائص البحثية والموسوعية التى توفرت للوبون، فنحن إذا شاكرين له هذا الجهد العظيم فى تدوين حضارة العرب العظيمة، أما إيمانه أو إلحاده فالله يُحاسبه يوم القيامة..

عن حياة محمد قبل الوحى : "ولم يُخبرنا التاريخ عن سيرة محمد فى السنين الخمس عشرة التى انقضت بعد زواجه بخديجة، ويُفترض، وإن لم يقُم دليل على ذلك، أنه كان يُفكر فى أثنائها فى مباديء دينه الذى سيكون زعيمه،ولم يَبْدُ منه فى تلك السنين أىٌ نفور من عبادات العرب مع ذلك، كما أنه لم يقع فيها ما يدل على تفكيره فى قلب العبادات رأسا على عقب"

وأعَقّب أنا على ذلك أن لوبون استهوته فكرة بزوغ الحضارت على أنه لا تقوم حضارة بدون مقدمات مسبقة ولا استعداد قديم، كما تقدم عن فكرته عن نشأة الحضارة العربية التى يقول فيها أنها، لاشك، كانت قائمة وعلى استعداد للانتشار وفرْض نفسها على العالم، فرأى لوبون من باب المنطق أن يُطبق هذه الفكرة على النبوة فادّعى أن محمد كان يُفكر فى أمر زعامته ودينه، لأنه من المستحيل، فى رأى لوبون، أن يُحدث محمد هذا الانقلاب فجأة بدون تفكير أو استعداد وتخطيط مسبقين، لكن من الواضح أنه غير مقتنع بمعنى النبوة أصلاً !

زواج محمد من زينب بنت جحش: "وأطلق محمد لهذا الحب العنان، حتى إنه رأى اتفاقا زوجة ابنه بالتبنى وهى عارية، فوقع فى قلبه منها شيء، فسرّحها بعلها ليتزوجها محمد، فاغتم المسلمون، فأُوحى إلى محمد، بواسطة جبريل الذى كان يتصل به يوميا، آيات تسوّغ ذلك، وانقلب الانتقاد إلى سكوت."

حادثة الإفك: "ولم يثبت، تماما، وفاء زوجات محمد الكامل له، ويظهر أن محمد لاقى من المكاره الزوجية ماينذر وجوده عند الشرقيين ويكثر وقوعه لدى الأوربيين، وكانت عائشة موضوع قلق له على الخصوص، وأصبحت ذات مرة موضع قالة سوء، فشهد بعصمتها جبريل المحب دائما، ودُوّنت شهادته فى هذه المسألة الحساسة فى القرآن، وحُظِر الشك."

حول تعدد الزوجات: "وعرف محمد فى آخر الأمر، ماينجم عن زيادة عدد الزوجات من المفاسد والشرور، وحرّم محمد على المسلم أن يَجمع أكثر من أربع زوجات، ولم يكن محمد هو الذى أباح تعدد الزوجات بين العرب، فتعدد الزوجات مما عرفته أمم آسية على اختلاف مللها ونِحلها قبل النبى، ولا يزال تعدد الزوجات شائعا بين هذه الأمم."

صورة النبى عند الغرب: يُصور الغرب النبى على أنه فيلسوفاً له نهجه الفلسفى الفريد الذى صاغه فى القرآن، لذلك فهم لا يتصورون أنه نبى موحى إليه ولا يستطيع عقلهم المادى البحت الوصول لتلك الحقيقية، لذلك فقد أورد

لوبون تلك الفقرة التى لا تليق بنبى عظيم ولا سيما محمد سيد الأنبياء جميعاً، وأنا أوردها لنعرف كيف يُفكر الغرب، وكيف يمكن التعامل معهم ودراسة فكرهم، ومن ثم نكون قادرين على تصحيحه ورد الشبهات عن نبينا:

صورة النبى عند المتهوسين: "ويجب عد محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كما هو واضح، وذلك كأكثر مؤسسى الديانات، ولا كبير أهمية لذلك، فأولو الهوس وحدهم، لا ذوو المزاج البارد من المفكرين، هم الذين ينشئون الديانات ويقودون الناس، ومتى يُبحث فى عمل المفتونين فى العالم يُعترف بأنه عظيم، وهم الذين أقاموا الأديان وهدموا الدول وأثاروا الجموع وقادوا البشر، ولو كان العقل، لا الهوس، هو الذى يسود العالم لكان للتاريخ مجرًى آخر. و لا يقف أى قول بخداع محمد ثانيةً أمام سلطان النقد كما يلوح لى، ومحمد كان يجد فى هوسه ما يحفزه إلى اقتحام كل عائق، ويجب على من يود أن يُفرض إيمانه على الآخرين أن يؤمن بنفسه قبل كل شيء، ومحمد كان يعتقد أنه مؤيد من الله، فيتقوى، ولا يرتد أمام أى مانع."

الواضح أنه لا يؤمن بوجود الله، فيُحيل أمر الإيمان به، إلى الهوس بفكرة غير موجودة.

وفى موضع آخر تتضح أكثر صورة النبى عند الأوربيين: "ولم يكن محمد فيلسوفاً كبيراً، أى من المفكرين المتبحرين الذين يقاسون بمؤسسى البرهمية

والبُدّهِيّة، فهو لم يُنكر سبب الأسباب كما أنكرها البُدّهِيّون، ولم يقُل مثلهم بأن الكون موجود بالضرورة ذو انحلال وتركيب دائمين، ولم يتصف بنصف ماعند مؤلفى كتب البراهمة المقدسة من الشكِّ ولم يُدخل إلى القرآن مثل التأملات الآتية التى تجدها فى كتب الويدا: "من أين أتى هذا الكون ؟ أهو من صنع خالق أم لا ؟ يعلم ذلك من ينظر من فوق الفلك، وقد لا يعلم".

ولكن أقوال مجردة مثل هذه لا تنفع غير الفلاسفة، ومحمد لم يزعم أنه يكتب من أجل الفلاسفة، وكان من مقاصد محمد أن يُقيم دينا سهلا يستمرئه قومه، وقد وُفّق لذلك حين أخذ من الأديان الأخرى ما يلائمهم، ولم يُفكر محمد فى إبداع دين جديد قط، وهو الذى أعلن أنه يسير على غرار من تقدمه من أنبياء بنى إسرائيل من إبراهيم إلى عيسى قائلاً إن ما أوحى إليهم صحيح، والحق أن اليهودية والنصرانية والإسلام فروع ثلاثة لأصل واحد، وأنها ذات قُربى وشيجة."

سبحان الله، يعرف أن محمد أمى وأنه ذو الخلق الرفيع الذى اعترفت له مكة بصدقه وأمانته، ثم يأتى هذا الأمى الصادق الأمين بفلسفة غيرت وجه الأرض، ثم فى موضع آخر يقول لوبون أن ميزة دين محمد أنه أول دين أدخل التوحيد بتلك الصورة الرائعة التى فى الإسلام، فأى عقل هذا يستطيع أن يواءم ويحسب الأمور، ويأتى بفلسفة لم تكن موجود من قبل. الحقيقة أنه لا يوجد أى إيمان قادر على فعل هذا سوى الإيمان بالله .

ثم يقول لوبون: "وما جاء فى القرآن من نص على خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وخلق آدم والجنة وهبوطه منها ويوم الحساب مُقتبس من التوراة."

المسلمين يؤمنون بكل ديانات الله وما أتى محمد إلا ليتممها ويُكمل النقص فيها، لكنها توضح مدى جهل لوبون مرة أخرى بالإسلام.

الجدير بالذكر أن لوبون قد أورد جميع صفات وشمائل النبيّ مما رُوى عن أصحابه ومما هو مدون فى كتب السيرة، وقد أقرها لوبون جميعا وصدقها.

إلى هنا ينتهى حديثنا عن شطحات لوبون وخزعبلاته حول مفهومه عن الإسلام، وقد حاولت قدر استطاعتى رد تلك الشبهات، وفى الباب الثانى –شقه الأول- تتجلى آراء لوبون المحرفة. وها نحن نبتدئ الشق الثانى من الباب، ونستكمل الموضوع الأساسى حول حضارة العرب...

يتنبه لوبون إلى أن ميل العرب الدائم للحرب والاقتتال هو من أسباب نجاحهم العظيم فى فتوحاتهم:

"وكان أبو بكر مضطرا إلى مقاومة الطامعين فى الخلافة وإلى محاربة القبائل التى امتنعت عن أداء ما فرض القرآن من الزكاة، ولم يلبث أبو بكر أن رأى أن أحسن وسيلة لمعالجة انقسام العرب هو أن يوجه العرب إلى البلاد

الأخرى كيما يمارسون عاداتهم فى الحرب والقتال، وسار الخلفاء الذين أتوا بعده على هذه السياسة الرشيدة التى انتشر بها الإسلام."

فبذلك تكون وُجهت تلك الطاقة إلى وجهتها السليمة، نحو الفتوحات، فإن توقفت وعُطّلت، تحاربوا فيما بينهم، كما حدث فى نهاية حضارة العرب:

"وأخذ العرب يتقاتلون بعد أن خلا العالم من بلد يفتحونه، وحلّت ساعة تفرق كلمتهم، ودخلوا دور الانحطاط، وقوضّوا كيانهم بسلاحهم أكثر مما قُوِّض بسلاح الأمم التى خضعت لسلطانهم."

خلاصة تاريخ العرب

حال العالم فى زمن محمد:

كان يتنازع سيادة العالم حين وفاة محمد دولتان عظيمتان، إحداهما دولة الروم التى كانت عاصمتها القسطنطينية وكانت صاحبة السلطان على جنوب أوربة والشرق الأدنى وشمال أفريقية الممتد من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطىّ، والأخرى دولة الفرس التى كان سلطانها ممتدا إلى مكان بعيد من آسية، وكان شمال أوربة وغربها فريسةٌ للبرابرة الذين كانت أمورهم فوضى وكانوا يتقاتلون على أسلاب الرومان وغنائمهم.

وكانت دولة الروم التى نهكتها محارباتها لدولة الفرس، والتى كانت تعانى عوامل الانحلال الكثيرة، فى دور الانحطاط، ولم تكن غير هيكل نَخِرٍ يكفى أقلٌ صدمة لتداعيه.

وكذلك كانت علائم الانقراض بادية على دولة الفرس التى أوهنتها تلك الحروب أيضاً.

وأثقل الحكم الرومانىّ كاهل مصر وأفريقية، وكانت القسطنطينية تستغل شعوبها من غير أن تُحْسن سياستهما، وكانت الاختلافات الدينية ومظالم الحكام تقوّض دعائمهما.

ولم تكن أوربة أحسن حالا، فكان الحكم فى إسبانية، التى ستصبح مقرا لدولةٍ زاهرة تحت الحكم العربى، بيد القوط المسيحيين الذين لم يستطيعوا أن يتمدنوا، والذين أكلتهم الانقساماتُ الدينية فاستغاثوا بقيصر الروم، فلم يُعَتِّم حلفاؤهم أن صاروا أعداءً تجب محاربتهم، وفقدت رومة الإيطالية نفوذها القديم وأصبح اسم الرومانىّ محتقرا فى كلِّ مكان، وصار البرابرة يتناوبون السيطرة عليها.

<u>نلخص فيما يأتى تاريخ وقائع العرب المهمة فى القرون الثمانية التى دامت فيها حضارتهم:</u>

القرن الأول من الهجرة: كانت فتوحات خلفاء محمد الأولى فى بلاد العراق الخاضعة لدولة الفرس وفى بلاد سورية الخاضعة لقيصر القسطنطينية هرقل، وكان بدء فتح هذين القطرين فى زمن الخليفة الأول الذى لم يلبث أن توفى فواصله عمر الذى دخل القدس بنفسه فخسر الروم، فى سبع سنين، بلاد سورية التى ظلوا حاكمين لها سبعمئة سنة.

ودوّخ جنود عمر بلاد العراق وفارس من فورهم، أىْ كفى لثلّهم عرش بنى ساسان وهدمهم الدولة الفارسية العريقة فى القدم شهرين.

ونالت كتائب عمر التى كان يقودها المجاهد الشاعر عمرو بن العاص، فى الغرب انتصارات سريعة، واستولت على بلاد مصر والنوبة، وكانت الدولة العربية التى وُلدت منذ عشرين سنة على جانب كبير من الاتساع حين وفاة عمر فى سنة 644 م.

وداوم الخليفة الثالث عثمان، الذى بلغ الثمانين من عمره، على الفتوح، وأتمّ قوّاده فتح بلاد فارس، ووصلت جيوشه إلى بلاد القفقاس، وأخذت ترتاد الهند.

وكان الخليفة الرابع علىّ، وهو صهر النبى (655م)، هدفا للدسائس التى كادت الدولة العربية تنهار بسببها، وقُتل علىّ بعد خلافة دامت خمس سنين، فخُتِم بوفاته دور الخلفاء الأولين الذين كانوا من أصحاب محمد السابقين المعدودين آباء الإسلام. وفُتِح دورُ خلفاء بنى أمية بمعاوية (660م) ونقل هؤلاء مقر الخلافة إلى دمشق، وصاروا يسيرون على نمط ملوك آسية. وأرسل الخليفة الجديد كتائب إلى شمال أفريقية الذى جعل منه حكومة منفصلة، ولم يعُق زحفها غير المحيط الأطلنطى، وجاب البحر المتوسط أسطول مؤلف من 1200 قطعة، فاستولى على جزره وأغار على صقلية. وحوصرت القسطنطينية سبع سنين على غير جدوى، وعُبر نهر جيحون ورفع قُوّاد الخليفة رايته حتى سمرقند.

ومات معاوية (680م) بعد حكم دام عشرين سنة.

وثابر بنو أمية على الفتح، وبلغت جيوشهم حدود الصين من الشرق والمحيط الأطلنطى من الغرب، وجاوز العرب مضيق جبل طارق فى سنة 712م، ودخلوا إسبانية، ووُفِّقوا لنزعها من مملكة القوط النصرانية، وأقاموا فيها مملكة خضعت لسلطان العرب نحو ثمانية قرون.

ولم يَنْقَضِ القرن الأول من الهجرة حتى كانت راية النبى تخفق من الهند إلى المحيط الأطلنطى، ومن القفقاس إلى الخليج الفارسىِّ، وغدت إسبانية، التى هى إحدى الممالك النصرانية الكبرى فى أوربة، خاضعة لشريعة محمد.

القرن الثانى من الهجرة: اتسع نطاق الفتوح العربية قليلا فى القرن الثانى من الهجرة، وأصبح همٌّ العرب مصروفا إلى تنظيم دولتهم العظمى على الخصوص، وتوغّلت جيوشهم فى بلاد الغول حتى اللوار حيث دحرها شارل مارتل، واستقروا بجنوب فرنسة إلى أن طردهم شارلمان منه نهائيا.

ونُقِلَ فى القرن الثانى من الهجرة، مقر الخلافة من دمشق إلى بغداد التى أنشأها المنصور فى سنة 762م، بعد أن تمّت الخلافة فيه لبنى العباس (عمِّ النبى) الذين هدموا دولة الأمويين فى سنة 752م، وقتلوهم خلا طريدٍ منهم استطاع أن يَفِرّ اتفاقاً وأن يقيم دولةً مستقلة فى إسبانية سنة 756م.

واتسعت رقعة الدولة العربية منذ أوائل القرن الثانى من الهجرة وبَلَغَت من الحدود مالم تقدِر على مجاوزته باسطة حكمها من جبال البرنات وجبل طارق إلى الهند، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى رمال الصحراء.

وصار معظم آسية خاضعا لسلطان الخلفاء الممتدّ من جزيرة العرب إلى التركستان ومن وادى كشمير إلى جبال طورس، وعُبِّدَت بلاد فارس، وصار ملوك كابل وجميع أمراء وادى السند يُعطون الجزية، وأضحى العرب فى أوربة مالكين لإسبانية ولجُزُر البحر المتوسط، وأضحوا فى أفريقية مالكين لشمالها ولمصر.

وانتهى دور الفتوح، وبدأ دور التنظيم، وحوّل الفاتحون نشاطهم إلى ميدان الحضارة، وكان عهد بنى العباس الأوّلين عهد ازدهار لحضارة العرب فى الشرق، وكان عهداً اقتبس العرب فيه ثقافة اليونان، فلم يُعَتِّموا أن أبدعوا حضارةً ساطعة ازدهرت فيها الآداب والعلوم والفنون.

ونهضت الفنون والعلوم والصناعة والتجارة بسرعة فى زمن هارون الرشيد (786-809) على الخصوص، وصار الشعراء والعلماء وأرباب الفن يُشيدون بذكر بطل ألف ليلة وليلة فى أقاصى العالم، وأعطته القسطنطينية جزية، وأرسل إليه إمبراطور الغرب، شارلمان، وفداً، ولم يَقِلَ عصر المأمون عن عصر سلفه الرشيد نضارةً.

ولم تكن الروابط بين الأمم التى اجتمعت تحت راية الدولة العربية العظمى ولم تلبث هذه الروابط أن انحلّت، ولم تلبث هذه الأمم أن أخذت تستقل تِباعاً مع دوام الحضارة على سيرها زمناً طويلاً، وسيكون القرن الثالث من الهجرة شاهداً على هذا الانقسام الذى أخذ يبدو منذ أواخر القرن الثانى.

القرن الثالث من الهجرة: كان قيام خلافة قرطبة فى الغرب قبل ذلك نذير انقسام دولة العرب، فظهرت فى بلاد فارس والهند بشرق بغداد إمارات كثيرةو ولم تنشب هذه العاصمة أن أحاط بها أمراء مستقلون.

ويشترى ابن طولون استقلاله السياسى بمصر، ويقيم فيها مملكة، ويلقى حبل إفريقية على غاربها، ويملك إسبانية خلفاء مستقلون استقلالاً تامًا.

القرن الرابع من الهجرة: استمرت الدولة العربية على الانقسام فى القرن الرابع من الهجرة، وقامت دولٌ مستقلة فى كثير من ولايتها، وخسرت بغداد ما للعواصم من المزايا، وصارت القاهرة قاعد الإسلام الحقيقية، وأصبحت إسبانية أنضر مقرٍ للحضارة العربية مع دوام عاصمة الخلفاء القديمة على إلقاء أشعتها الساطعة، ويقصد طالبو العلم من جميع أقطار الأرض، ومنها أوربة النصرانية، جامعات العرب الكبيرة فى طُلَيْطِلة وغَرْناطة وقُرطبة.

القرن الخامس من الهجرة: شهد القرن الخامس من الهجرة أمرين مهمين، وهما الحروب الصليبية وظهور الأتراك السلجوقيين فى العالم العربى، وكان قد جيء بهؤلاء السلجوقيين البرابرة من التركستان كأسرى حربٍ فى بدء الأمر، ثم تألف منهم حرس الخلفاء فى بغداد، فابتلعوا السلطة الحقيقية شيئاً فشيئاً غير تاركين للخلفاء من السلطة سوى المظاهر. وجعل السلجوقيين مقرهم أمام القسطنطينية بعد أن ملكوا جميع الولايات المجاورة لبغداد، واستولوا على سورية، وأحلّوا تعصبهم محلّ تسامح العرب، ونهوا النصارى عن القيام بشعائر دينهم، وجاروا على حجيجهم، فاضطربت أوربة وثارت، بعد أن كانت تخشى تقدم المسلمين منذ زمن طويل. ونشأ عن مواعظ بطرس الراهب ودعوة البابا أوربان الثانى أن جرّد الأوربيون حملتهم الصليبية الأولى فى سنة 1095 م وانقضوا على فلسطين، واستولوا عليها، وأنشأ غودفروا البويونى مملكة القدس النصرانية الهزيلة.

ومما حدث فى القرن الخامس من الهجرة أن طُرِد العرب من صقلية وأن حالف نصارى إسبانية بعض التوفيق، فاستولى الأذفونش القشتالى على طُلَيْطِلة، فكان هذا بُدَاءةَ الفتح الذى لم يَتِمّ إلا بعد جهود أربعة قرون.

القرن السادس من الهجرة: أدى انتصار النصارى الأول فى الشرق إلى زيادة الحماسة فى أوربة، فجرّدَت أوربة حملة صليبية على الإسلام فى سنة

1147 م، فكانت نتيجة هذه الحملة وبالاً على الصليبيين كأية حملة جردتها أوربة بعدئذ على العالم الأسلامى، فقد استولى سلطان مصر الشهير صلاح الدين الأيوبى على بلاد فلسطين وطرد منها النصارى وبقى سيد المدينة المقدسة على الرغم من الحملة الصليبية الثالثة التى جردتها أوربة فى سنة 1189 م فريدريك بار باروس وفيليب أوغست وقلب الأسد: ريكاردس.

القرن السابع من الهجرة: جرّد الأوربيون على الإسلام عدّة حملات صليبية كان نصيبها الحبوط الذريع، واكتسح الصليبيون فى حملته الرابعة التى جردوها فى سنة 1202 م مدينة القسطنطينية المسيحية بدلا من مقاتلة المسلمين، وأقاموا فيها دولة لاتينية شرقية لم يُكتب لها البقاء أكثر مما كُتب لدولة القدس، ولم تكن الحملات الصليبية الأربع الأخيرة أوفر حظاً مما تقدمها، وأُسِر الملك سان لويس فى الحملة السابعة، وافتدى نفسه بفدية عظيمة، ومات هذا الملك فى الحملة الثامنة بالطاعون حين اقترب من أسوار تونس طامعا فى تنصير أميرها،

وكانت هذه الحملة الثامنة أخرى الحملات الصليبية، وأدرك العالم النصرانى بها أنه لايزال عاجزاً عن قهر المسلمين، وعدل عن فتح فلسطين، وظلّت الراية الإسلامية تخفق فوقها حتى الآن. (كتب لوبون كتابه هذا سنة 1884قبل استيلاء

اليهود على القدس، أى أننا الجيل الذى سُلِبَت فى عهده القدس بعد أن كانت فى يد المسلمين لمدة ثلاث عشرة قرون، فأى عار هذا!)

وبينما كان العرب يدفعون نصارى الغرب فى أثناء الحروب الصليبية ويخرجون منها ظافرين ظهر فى الشرق عدو مخيف، فقد قذفت نجود التتر تيار المغول الذى انقض على آسية بقيادة جنكيز خان، واكتسح بلاد الصين وفارس والهند، ثم استولى المغول عل بغداد فى سنة 1258 م، وقضوا على العباسيين اللذين كان لهم السلطان منذ خمسمئة سنة.

وعلى ما بين الترك والمغول من شبهٍ فى الهمجية كان المغول أكثر استعداد للثقافة، فالمغول وإن لم يكونوا أهلاً لإبداع حضارة جديدة كما أبدع العرب، استطاعوا أن ينتفعوا بحضارة العرب الذين، وإن زال ملكهم فى الشرق، ظلت حضارتهم تهيمن عليه. وانحصر سلطان العرب فى مصر وإسبانية بعد أن تَكَمّش أمام أولئك الفاتحين.

القرن الثامن من الهجرة: كان القرن الثامن من الهجرة حافلا باقتتال الترك والمغول على ميراث العرب فى الشرق، وقد دقّت ساعة انحطاط هؤلاء الآخرين.

القرن التاسع من الهجرة: قُضِيَ على دولة العرب وحضارتهم فى إسبانية التى ملكوها نحو ثمانمئة سنة، وذلك أن فرديناند استولى على عاصمة العرب

الأخيرة غرناطة فى سنة 1492 م، وأنه أخذ يُمْعِن فى قتلهم وتشريدهم جماعاتٍ جماعاتٍ، وأن خلفاءه ساروا على سُنّته، وأنه قُتِل من العرب وشُرِّدَ ثلاثة ملايين نفس، فخَبَت إلى الأبد شعلة حضارة العرب التى كانت تُنير أوربة منذ ثمانية قرون.

وكانت خاتمة دولة العرب فى القرن التاسع من الهجرة، ولم يبق للعرب فى الشرق من الشأن الكبير فى غير دينهم ولغتهم وحضارتهم، وحاولت الأمم التى قهرت العرب أن تسير على نحو العرب كما صنع البرابرة الذين قهروا الرومان، فأحلّت الهلال باسم القرآن محلّ الصليب فى القسطنطينية التى كانت عاصمة الروم، فارتعدت فرائص العالم النصرانىِّ فرقا من ذلك.

ولكن الترك، وإن كانوا أهل حربٍ وقتالٍ، لم يكونوا أهلاً ليصعدوا فى سلّم الحضارة، ولم يقدروا على الانتفاع بتراث العرب المغلوبين الثقافىِّ، فضلاً عن إنمائه، ويقول العرب: "لا يَنْبُتُ العُشْبُ على أرضٍ يَطَأُها الترك"، والحق أنه لم يَنْبُت، فسترى فى فصلٍ آخرَ دَرَكَةَ الانحطاط التى هَبَطَت إليها دولة العرب القديمة بسرعة بين أيدى سادتها الجُدُد.

الباب الثالث

الفصل الأول: العرب فى سورية

دمشق: تم فتح دمشق يوم وفاة الخليفة الأول أبى بكر فى السنة الثالثة عشرة من الهجرة (634م)، وصرخ هرقل حين أتاه خبر سقوط دمشق قائلا: "وداعاً يا سورية! "

حقًا لقد خسر الروم سورية، فقد استولى عليها العرب بعد معركة اليرموك الشهيرة، التى دامت ثلاثة أيام وانتهت بانتصار العرب، على جميع مدن سورية، وفتحوا عَنوَةً تَدْمُر وبعلبك وأنطاكية وطبرية ونابلس والقدس وطرابلس وغيرها، وأُكره القيصر على مغادرة سورية إلى الأبد بعد أن ملكها أسلافه منذ سبعة قرون.

القدس: هجم العرب على القدس بشدة كالتى أُبْدِيَت للذّبِّ عنها، وحث البطرك صفرونيوس الحماة النصارى على الدفاع عن قبر الرب فلم يُجْدِ ذلك نفعا تجاه القدر الذى قضى بأن تحل راية الإسلام محل الصليب فوق قبر يسوع، وأى صفرونيوس أن يُذعن بعد حصار دام أربعة أشهر، واشتط أن يتسلم الخليفة عمر القدس بنفسه، فقُبِل ذلك، فركب عمر بعيراً، وغادر المدينة وحده تقريباً، ولم يأخذ معه من الزاد سوى قربة ماء وجراب شعير وأرز

وتمر، وأغذّ عمر فى السير ليل نهار ليصل إلى القدس فى وقت قصير، فلما دخل القدس أبدى من التسامح العظيم نحو أهلها ما أمنوا به على دينهم وأموالهم وعاداتهم، ولم يفرض سوى جزية زهيدة عليهم.

وأبدى العرب تسامحاً مثل هذا تجاه المدن السورية الأخرى كلها، ولم يلبث جميع سكانها أن رضوا بسيادة العرب، واعتنق أكثر أولئك السكان الإسلام بدلاً من النصرانية، وأقبلوا على تعلم اللغة العربية، وظلت سورية بلداً عربيا إسلاميا كما كانت فى أوائل الفتح العربى مع تداول كثير من الفاتحين لسيادتها بعد ذلك.

ولما توالت هزائم الروم فى سورية استحوذ عليهم خوفٌ عظيم من العرب الذين أمعنوا فى ازدرائهم، ومن الأدلة على ذلك الكتاب الآتى الذى أرسله عمرُ بن الخطاب إلى هرقل يطالبه فيه بإطلاق قائد عربىّ أسره الروم فى إحدى الوقائع:

"بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربالعالمين، والصلاة والسلام على رسوله، من عبد الله عمر بن الخطاب إلى هرقل ملك الروم، أطلقوا الأسير المسلم، عبد الله بن حذافة، حين وصول كتابى هذا إليكم، فإن فعلتم ذلك رجوت من الله أن يهديكم الصراط المستقيم ، وإن لم تفعلوا فإننى أبعث إليكم رجالاً لا تُلْهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ فى سبيل الله، والسلام على من اتبع الهدى".

ولم يكن القيصر هرقل ليغضب من هذا الكتاب الشديد، فقد أطلق الأسير مصحوباً بهدية ثمينة إلى الخليفة، وهرقل هذا هو وارث عرش القياصرة الجبارين الذين دوّخوا العالم فخلف من بعدهم خلف فقدوا المشاعر التى كان فيها سر عظمتهم.

فى وصف سورية أيام الفتح: وكانت سورية من أغنى أقطار العالم دائماً ما لم تنلها أيدى التخريب، فهى ذات أرض كانت تنبت البُرّ والقطن والشعير والأرُزّ والتوت والزيتون والليمون والبرتقال من غير عناء، وكانت جبال لبنان مستورةً بأعزِّ الأشجار، كشجر البلوط والدُّلب والجميز إلخ، ولولا الإنسان لكان هذا البلد القديم جنة الأرض، واستحقّ تسميةَ العبريين له بأرض الميعاد، ذلك البلد العجيب الذى وصف شُعراء العرب كلّ جبل فيه بأنه يحمل الشتاء على رأسه والربيع على كتفيه والخريف على صدره على حين يرقُد الصيف متثاقلاً على قديه.

الفصل الثانى: العرب فى بَغْداد

بلغت بغداد ذُرْوَة الرّخاء فى عصر بطل رواية ألف ليلة وليلة هارون الرشيد (786م-809م) وابنه المأمون (813م-833م) وصارت أهم مدن الشرق، وذاع صيت الرشيد، وطبّق الآفاق، فأرسلت بلاد التتر والهند والصين رُسُلاً إلى بلاطه، وأرسل عاهل الغرب الحقيقىّ وصاحب الحول والشّوكة، الإمبراطور شارلمان، الذى يملك ما بين المحيط الأطلنطى ونهر الإلب، وهو الذى لم يملك غير أناس من الهمج- وفداً ليُبَلِّغ الرشيد أطيب تحياته ويلتمس منه الحماية لحجيج القدس فأجابه الرشيد إلى سؤاله، وردّ إليه وفده مع هدايا عظيمة، ومن بينها فيلٌ مُجهّز بأفخر جهاز، والفيل كانت تجهله أوربة تماما، ولآلئ وجواهر وحُليٌّ وعاج وعطور ونسائج حريرية وساعة دقاقة تدل على الوقت، وقد قضى إمبراطور الغرب شارلمان العجب من هذه الساعة هو وحاشيته المتبربرون الذين لم يكن بينهم من قدر على إدراك كنهها، والذين حاول شارلمان عبثاً أن يحملهم على إحياء حضارة الرومان.

وكان حب العرب للعلم عظيماً، ولم يترك الخلفاء فى بغداد طريقا لاجتذاب أشهر العلماء ورجال الفن فى العالم إلا سلكوها، ومن ذلك أن شَهَر أحد أولئك الخلفاء الحربَ على قيصر الروم ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين فى التدريس ببغداد.

وكان العلماء ورجال الفن والأدباء من جميع الملل والنِّحَل، من يونان وفرس وأقباط وكلدان، يتقاطرون إلى بغداد ويجعلون منها مركزاً للثقافة فى الدنيا، وقال أبو الفرج عن المأمون إنه "كان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذّ بمذاكرتهم علماً منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده... فلهذا كان أهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر، وأوحشت الدنيا لفقدهم"

وكانت قوة الخلفاء الحربية فى بغداد تناسب أهمية دولتهم، ويمكننا اجتلاء ما كانت عليه من الهيبة فى الخارج بما أُكره عليه قيصر بزنطة الوارث لعظمة اليونان والرومان من دفع الجزية حين تمنّع عن إعطائها عَبَثاً، فلما رفض خليفة الإمبراطورة إيرين، القيصر نيقور، إعطاء الجزية فى كتاب أرسله إلى الخليفة هارون الرشيد أجابه هارون الرشيد بالكتاب الموجز العنيف الدالّ على درجة الاحتقار الذى أضحى عُرضةً له أبناء اليونان والرومان الضعفاء، وإلَيْكَهُ: "بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نيقور كلب الروم، قد قرأتُ كتابك يا ابن الكافر، والجواب ما تراه، لا ما تسمعه".

رأى "كلب الروم" الجواب، فقد خرّب هارون الرشيد بلاده تماماً، وأرغم قيصر القسطنطينية النصرانىّ على دفع الجزية إلى أمير المؤمنين.

ومن الإنصاف أن عُدّ سلطان العرب السياسى فى عصر الرشيد وابنه المأمون أقصى ما انتهى إليه سطان العرب فى الشرق، فقد كانت بلاد الصين حداً لدولة العرب فى آسية، ودحر العرب قبائل إفريقية المتوحشة إلى حدود بلاد الحبشة، والحق أن هؤلاء القوم الشجعان الذين لبّوْا دعوة محمد، وغَدَوا أمةً واحدة، أقاموا دولةً بلغت ما بلغته دولة الرومان من الاتساع فى أقلّ من قرنين، وأن هذه الدولة بدت أكثر دول الأرض هيبةً وتمدناً.

لم يكن الترك الذين جيء بهم إلى بغداد من غير الأسرى أو الموالى الذين أعجبت الخلفاء قدودهم ففوّض الخلفاء إليهم أمر حِراستهم، ولم يلبث هؤلاء الموالى أن صنعوا كما صنع المماليك بمصر، فانفردوا بالأمر غير تاركين لسادتهم الخلفاء سوى سلطة اسمية.

ولم يقدر الخلفاء على مقاومة جميع المطامع التى كانت تحيق بهم، فانقسمت دولتهم إلى إمارات مستقلة، فلما توارى آخر العباسيين عادت بغداد لا تستطيع الادعاء بلقب آخر غير كونها الملجأ الأول لعلوم الشرق وآدابه.

واستولى المغول على بغداد سنة (656هـ - 1258م) وخرّبوها تماما، وخنقوا آخر العباسيين، المستعصم بالله، بأمر رئيس الغالبين "هولاكو" ونهبوا ما فى بغداد من الأموال، وحرّقوا كتبها التى جمعها قبل هذه الكارثة الهائلة محبو العلم وألقوها إلى نهر دجلة، فتألف منها جسر كان يمكن الناس أن يمروا

عليه رجالاً ورُكباناً، وأصبح ماء دجلة أسود من مدادها، كما روى قطب الدين الحنفىٌ.

الفصل الثالث: العرب فى بلاد فارس والهند

العرب فى بلاد فارس: تمّ النصر للعرب على بلاد فارس فى الدور الأول من الإسلام، كما اتفق لهم فى سورية، واستولوا على أصبهان فى خلافة عمر بن الخطاب (645م) ، ودام السلطان للخلفاء فى بلاد فارس مدة ثلاثة قرون، وكان تاريخ بلاد فارس مرتبطاً فى تاريخ بغداد بعض الارتباط، ثم تداولت حكم بلاد فارس دولٌ مستقلة موقتة كان يُدالُ منها، ونعُدُّ من تلك الدول دولةَ الترك السلجوقيين الذين قضى المغول على سلطانهم فى القرن الثالث عشر، ثم دولة التركمان الذين طردوا المغول من بلاد فارس فى سنة 1403م.

العرب فى بلاد الهند: بدأ ظهور العرب فى الهند منذ السنة الولى من الهجرة (637م) ، فقد خرجت أساطيل عربية من عمان والبحرين وتقدمت إلى مصاب السند، ثم أدى ملك كابل الجزية إلى العرب فى سنة 664 م، وفتح جيش العرب فى سنة 711م مملكة السند التى كانت تمتد إلى كشمير من الشرق ونهر السند من الغرب. ولم يكن لاستقرار العرب هنالك من أهمية كبيرة، فقد انتهى فى سنة 750 م، فآل الحكم فيها إلى ملوكٍ من الهندوس، فإلى الترك والمغول الذين اعتنقوا الإسلام.

الفصل الرابع: العرب فى مصر

درس شأن العرب فى مصر ذو فائدة عظيمة، فمصر من البلدان التى طالت إقامة العرب بها، وهى من البلدان التى أنشأوا فيها دولة مهمة، وهى من البلدان التى كان تأثيرهم فيها أعظم مما فى أى بلدٍ آخر، ولا شيء يستوقف النظر كحفدة قدماء المصريين الذين قاوموا نفوذ الأغارقة والرومان على الخصوص ثم اعتنقوا دين العرب ولغة العرب وحضارة العرب الغالبين وصاروا عرباً خالصى العروبة، وفى فارس والهند امتزجت حضارة العرب بالحضارة السابقة، وفى مصر توارت أمام حضارة أتباع النبىِّ الجديد حضارة الفراعنة القديمة وحضارة اليونان والرومان التى تنضّدت فوقها فى قليل من المدن.

ولابد لنا من النظر إلى تاريخ مصر وأحوال العيش الخاصة فيها لإدراك أسباب السرعة فى استيلاء العرب على مصر ولفهم سر تأثيرهم فيها. وترجع بعض الآثار المصرية القديمة إلى ماقبل سبعة آلاف سنة أو ثمانية آلاف سنة، كما دلت عليه المباحث الحديثة، ومهما بعدنا فى الرجوع إلى عصور التاريخ وجدنا المصريين أصحاب حضارة راقية ونجهل مصدر حضارة المصريين تماما، وإن كنا نعلم أنها أقدم من جميع الحضارات التى أينعت على شواطيء البحر المتوسط وأنها قامت على ضفتىّ النيل قبل أن تقتبس الشعوب الإغريقية منها فنونها ومعتقداتها بقرون كثيرة.

وكانت مصر، حين ظهور العرب على مسرح التاريخ طُعْمَةً للغزاة الفاتحين منذ قرون كثيرة فقد استولى الإسكندر عليها فى سنة 332 ق.م ، وطرد الفرس منها وأقام مدينة الإسكندرية فيها، ثم نادى أحد قواده، بطليموس سوتر، بنفسه ملكا عليها فى سنة 304 ق.م ، وملكت أسرة البطالمة مصر مدة 274 سنة، وكان آخر من تولّوا أمور مصر من تلك الأسرة الملكة كليوباترة الشهيرة، ولما هَزَم أكتافيوس وأنطونيوس فى معركة أكسيوم فى سنة 30 ق.م ، أصبحت مصر ولاية رومانية، ولما قُسِّمت الدولة الرومانية أثر وفاة ثيودوز فى سنة 395م كانت مصر من نصيب دولة الشرق الرومانية، وظلت مصر تابعةً لهذه الدولة حتى سنة 640م ، أى السنة التى فتحها العرب فيها.

وعندما أصبحت النصرانية دين الدولة القسطنطينية الرسمى أمر القيصر ثيودوز، فى سنة 389م ، بهدم جميع تماثيل الآلهة المصرية القديمة ومعابدها وجميع ما يُذكر الناس بها، واكتفى بتشويه المعابد المصرية التى كانت من المتانة بحيث لم يقدر على هدمها بسهولة.

ولا تزال مصر ملأى بأنقاض ذلك التخريب الذى أملاه التعصب، وتُعدّ تلك الأعمال من أفظع ما عرفه التاريخ من أثر عدم التسامح والبربرية، ومن دواعى الأسف أن كان من بواكير أعمال ناشرى الدين الجديد، الذى حلّ محلّ

دين الأغارقة والرومان، هَدْم المبانى التى احترمها أكثر الفاتحين منذ خمسة آلاف سنة. وأدّت هذه الأعمال الوحشية بسرعة إلى امِّحاء الحضارة المصرية وزوال دور الخط الهيروغليفى الذى حُلّت رموزه فى الزمن الحاضر، وأُكرهت مصر على انتحال النصرانية وهبطت بذلك إلى دركات الانحطاط مقداراً فمقداراً إلى أن جاء العـــرب.

المجاعة: وقد يكون نهر النيل الذى فيه سر غنى مصر سبب بؤسها، فإذا ما كان فيضانه دون الدرجة الكافية ضربت المجاعة أطنابها فى مصر، وإذا دام القحط فى مصر عدة سنين لم يبق أمام الكثيرين من الفلاحين سوى الموت جوعاً، ومن ذلك القحط الهائل الذى نُكِبت به مصر سنة (462هـ - 1069م) أيام الحكم العربى، فقد روى مؤرخو العرب أنه حين نقض فيضان النيل عن درجة الكفاية خمس سنين متتابعة، وتعذّر جلب القمح من الخارج بسبب الحروب الكثيرة التى كانت تقع فى تلك السنين، بلغت المجاعة فى مصر مبلغاً صارت تُباع معه البيضة الواحدة بخمسة عشر فرنكاً والهرة الواحدة بخمسةٍ وأربعين فرنكاً، وأن الناس أكلوا فى أثناء تلك المجاعة جِمال الخليفة وأفراسه التى كان عددها عشرة آلاف، وأنهم رموا فى إبانها وزير الخليفة عن ظهر بغلته حينما كان ذاهباً إلى الصلاة فى المسجد فذبحوها وأكلوها على مرأى منه، ثم أكلوا جثث الذين قُتِلوا بسبب هذا الاعتداء،

ودامت تلك المجاعة، وكانت كلما دامت أكل الناس بعضهم بعضاً، فكان يُذبح من يخرج من البيوت من الأولاد والنساء ويؤكل لحمه مع عويله، وما حدث أن نجت امرأة وكُتِب لها حظ البقاء حيّة عد أن أُكل بعضها فى تلك الأيام، فكان الناس يشيرون إليها لطويل زمن بعد انقضاء المجاعة.

فتح مصر: فتح القائد عمرو بن العاص، الذى هو من عمّال الخليفة الثانى، عمر، بلاد مصر فى السنة الثامنة عشرة من الهجرة (639م) ، وقد ذكرنا ما كان عليه عمرو بن العاص من الحِذْق والمهارة نحو سكان مصر، فهو لم يتعرض إلى ديانتهم ولا إلى نظمهم ولا إلى عاداتهم، ولم يطالبهم بغير سوى جزية سنوية قدرها خمسة عشر فرنكاً عن كل رأس مقابل حمايتهم، فرضى المصريون بذلك شاكرين، ولم يندّ سوى الروم، أى الجنود والموظفين ورجال الدين الذين أبوا أن يخضعوا للغزاة فالتجأوا إلى الإسكندرية، فحاصرها العرب حصاراً دام أربعة عشر شهراً، وقُتِل فى أثنائه ثلاثة وعشرون ألفاً من العرب.

وكان عمرو بن العاص سَمْحاً رحيماً نحو أهل الإسكندرية مع تلك الخسارة التى أُصيب بها العرب، ولم يَقسُ عليهم، وصنع ما يكسب به قلوبهم، وأجابهم إلى مطالبهم وأصلح أسدادهم وتُرعهم وأنفق الأموال الطائلة على شؤونهم العامة.

وأما إحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم فمن الأعمال الهمجية التى تأباها عادات العرب، والتى تجعل المرء يسأل: كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء الأعلام زمناً طويلاً ؟ وهذه القصة دُحِضَت فى زماننا فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها، ولا شيء أسهل من أن نثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أن النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين فى الإسكندرية قبل الفتح العربى بعناية كالتى هدموا بها التماثيل ولم يبق منها مايُحرق.

الفصل الرابع: العرب فى إفريقية الشمالية

لاقى العرب فى فتح إفريقية من المصاعب ما لم يلاقوه فى فتح مصر، ولم يستقرّ أمرهم بها إلا ببطءٍ شديد، أى أن البربر لم يتوانوا عن مقاتلة العرب، وإنهم استردوا استقلالهم غير مرة.

وخضعت إفريقية الشمالية لوندال، الذين أتوا من إسبانية، أكثر من مائة سنة (429م – 545م) بعد أن خضعت للرومان عدّة قرون، ثم طردهم منها جيش جوستينيان الذى أرسله بقيادة بيليزير، ثم استولى قوط إسبانية عليها، وكان القوط مالكين لبعضها حين ظهور العرب على مسرح التاريخ.

وكانت مقاومة الروم للعرب فى شمال ظغفريقية ضعيفة كما فى مصر، ولولا البربر لتمّ للعرب فتحها بسرعة، ونشأ عن استبسال البربر فى مقاومة العرب إلى خوض خمس معارك هالة وقعت فى نحو نصف قرن ليكونوا سادة شمال إفريقية. وكانت غزوة العرب الأولى فى السنة الثالثة والعشرين من الهجرة (644م) وكانت ولاية برقة القريبة من مصر أول ما استولوا عليه، ثم فتحوا ولاية طرابلس الغرب، واستولوا على مدن كثيرة فى سنة 646م،

ثم جَلَوْا عن البلاد بعد أن أُعْطَوْا فدية، ولم يظهروا ثانيةً إلا بعد عشرين سنة حينما امتشقوا الحسام وأوغلوا فى البلاد حتى المحيط الأطلنطىّ.

وبنى العرب عاصمة إفريقية العربية القادمة، القيروان، فى سنة 675م ، واستولوا على قرطاجة فى سنة (691م – 69هـ) ، وهزموا الجيش الكبير الذى جمعته ملكة البربر الكاهنة لمقاتلتهم، وصار لهم فى سنة 711 م ، من القوة ما فتحوا به بلاد إسبانية..

الفصل الرابع: العرب فى إسبانية

فكر العرب فى فتح إسبانية بعد أن طردوا الروم من شمال إفريقية وردوا جماح البربر، وتم لهم، بصعوبة، فتح الأقطار الإفريقية التى كانت مسرحاً لحروب رومة وقرطاجة ولمغازى ماسينيه وجوغورته وغيرهما من القادة المشهورين.

ولم يكن حب التوسع وحده هو الذى حفز العرب، الذين ترامت أطراف دولتهم، إلى فتح إسبانية، وإنما دفعهم إلى ذلك رغبتهم فى إلهاء البربر الذين كانوا أشد من حاربهم العرب من الأعداء، والذين ظلوا مرهوبين لشجاعتهم وميلهم إلى الاستقلال وحبهم للقتال على الرغم من قهر العرب لهم، فكان من السياسة الرشيدة إرواء غرائزهم الحربية فى الغارة على البلدان الأجنبية.

استقرار العرب بإسبانية: دخل جيش إسلامى مؤلف من من اثنى عشر ألف جندى بلاد إسبانية فى سنة 711م ، أى فى زمن الخليفة العاشر الذى كانت دمشق عاصمته.

ومن يقطع القِسم الجنوبى الخصب من بلاد إسبانية يعلم مقدار التأثير الذى أثّر به فى نفوس العرب حينما استولوا عليه، فقد بهرتهم تربته وهواؤه ومدنه ومبانيه.

ووُصِفت إسبانية فى كتاب أرسله قائد الجيش العربى إلى الخليفة الأُموى بأنها: "شامية فى طيبها وهوائها، يمنية فى اعتدالها واستوائها، هندية فى عطرها وذكائها، أهوازية فى عظم جباياتها، صينية فى معادن جواهرها، عدنية فى منافع سواحلها".

وكان العرب قد قَضَوْا خمسين سنة فى فتح إفريقية البربرية، ولم يَقضُوا سوى بضعة أشهر فى فتح جميع إسبانية النصرانية، وتقرر مصير مملكة القوط فى المعركة الأولى المهمة التى خاض المسلمون غمارها، والتى كان رئيس أساقفة أشبيلية حليفاً لهم فيها، والتى خسر القوط فيها ملكهم وخسروا إسبانية.

ويُروَى مع التوكيد، أن موسى بن نصير فكّر، بعد فتح إسبانية، فى العودة إلى سورية من بلاد الغول وألمانية وفى الاستلاء على القسطنطينة وفى إخضاع العالم القديم لأحكام القرآن، وأنه لم يَعُقْه عن ذلك العمل العظيم سوى أمر الخليفة إياه بأن يعود إلى دمشق، فلو وُفِّق موسى بن نصير لذلك لجعل أوربة مسلمة، ولحقّق للأمم المتمدنة وحدتها الدينة، ولأنقذ أوربة، على مايُحتمل، من دَوْر القرون الوسطى الذى لم تعرفه إسبانية بفضل العرب.

كانت إسبانية، التى تم فتحها فى سنة 711م ، تابعةً لخلفاء دمشق حتى سنة 756م وكان ينوب عن هؤلاء الخلفاء أمراء فى شؤون حكمها، فلما كانت

سنة 756م انفصلت إسبانية عن خلافة المشرق، وقامت فيها دولةٌ مستقلة عُرِفت فى التاريخ بخلافة قرطبة التى أصبحت عاصمة لها. وأخذ نجم العرب السياسىٌ فى إسبانية يأفل بعد أن مضى على سلطانهم ثلاثة قرون بلغت الحضارة العربية فيها ذرْوتها، وشرع النصارى الذين دحرهم العرب إلى الشمال يستفيدون مما كان يقع بين المسلمين من الفساد والفتن وصاروا يُغيرون عليهم. واستغاث عرب إسبانية ببربر مراكش فى سنة 1085م ، ليحولوا دون توالى انتصارات ملك قشتالة وليون: الأذفونش السادس، ولم يلبث هؤلاء البربر الذين جاءوا إلى إسبانية حلفاء للعرب أن ظهروا لهم بمظهر السيد، وأسفر تنازع العرب والبربر عن انقسام دولة العرب إلى عشرين دويلة وعن قبض المرابطين والموحدين وغيرهم من البربر على زمام الأمور وعن تَكَمُّش العرب إزاء البربر وعن تدرج الحضارة العربية إلى الانزواء.

واهتبل النصارى تلك الفرص، فوسّعوا دائرتهم على حساب المسلمين، وأقاموا دُوَيلات كثيرة كبلنسية وقشتالة ومُرسِية وغيرها مما انتهى إلى أربع دول، هى: البرتغال ونَبَرّة وأرغونة وقشتالة.

ولم يبق للعرب فى أواخر القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة، ولما تزوج ملك أرغونة فرديناند الكاثوليكى ملكة قشتالة إيزابِلاّ، وتمت بذلك وَحْدَة تينك الدولتين، حاصر فى سنة 1492 غرناطة، التى كانت آخر معقل

للإسلام فى إسبانية، وفتحها، ثم ضم إليه مملكة نَبَرّة، فأصبحت جميع إسبانية، خلا البرتغال، تابعةً لعرش واحد.

ودامت دولة العرب فى إسبانية نحو ثمانية قرون، أى مايقرب من مدة سلطان الروم، وأدى انقسامها إلى زوالها أكثر مما أدت إليه الغارات الأجنبية، فالعرب، وإن كانت عبقريتهم الثقافية من الطراز الأول، لم يَبْدُ نبوغهم السياسىٌ غير ضعيف.

مذابح النصرانيين ضد مسلمى إسبانية: وعاهد فرديناند على منحهم حرية الدين واللغة، ولكن سنة 1499م لم تكد تحل حتى حلّ بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب الذى دام قروناً، والذى لم ينته إلا بطرد العرب من إسبانية، وكان تعميد العرب كَرْهاً فاتحة ذلك الدور، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثيرٍ من المُعَمّدين على أنهم من النصارى، ولم تتم عملية التطهير بالنار إلا بالتدريج لتعذر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة، ونصح كردينال طليطلة التقىٌ، الذى كان رئيساً لمحاكم التفتيش، بقطع رءوس جميع من لم يتنصّر من العرب رجالاً ونساءً وشيوخاً وولداناً، ولم يرَ الراهب الدومينيكى، بليدا، الكفاية فى ذلك فأشار بضرب رقاب من تنصّر من العرب ومن بقى على دينه منهم، وحجته فى ذلك أن من المستحيل معرفة صدق إيمان من تنصّر من العرب، فمن المستحبِّ، إذَنْ، قتل جميع العرب

بحدِّ السيف لكى يحكم الربٌ بينهم فى الحياة الأخرى ويُدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم، ولم ترَ الحكومة الإسبانية أن تعمل بما أشار به هذا الراهب الدومينيكىٌ الذى أيّده الإكليروس فى رأيه لِما قد يُبديه الضحايا من مقاومة، وإنما أمرت، فى سنة 1610م ، بإجلاء العرب عن إسبانية، فقُتِل أكثر مهاجرى العرب فى الطريق، وأبدى ذلك الراهب البارع، بليدا، ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع هؤلاء المهاجرين فى أثناء هجرتهم، وهو الذى قتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من 000،140 مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى إفريقية. وخسرت إسبانية بذلك مليون مسلم من رعاياها فى بضعة أشهر، ويقدر كثيرٌ من العلماء، ومنهم سيديو، عدد المسلمين الذين خسرتهم إسبانية، منذ أن فتح فرديناند غرناطة حتى إجلائهم الأخير، بثلاثة ملايين، ولا تُعَدٌ ملحمة سان بارتلمى إزاء تلك المذابح سوى حادث تافه لا يؤبه له، ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم كتلك التى اقتُرِفَت ضد المسلمين.

ومما يُرثى له أن حُرمت إسبانية عمداً هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية.

ثم رأت محاكم التفتيش أن تُبيد كلّ نصرانىّ ترى فيه شيئاً من النباهة والفضل، فكان من نتائج هذه المظالم المزدوجة أن هبطت إسبانية إلى أسفل

دركات الانحطاط بعد أن بلغت قمة المجد، وأن انهار معاً كلٌ ما كان فيها من الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والآداب والسكان.

وهاهى ذى عدّة قرون مضت على ذلك الدور من غير أن تستطيع إسبانية أن تنهض من هبوطها مع ما بُذِل من الجهود، وقد صار عدد سكان طليطلة فى الوقت الحاضر 17،000 بعد أن كان 200،000 أيام الحكم العربىِّ، وقد أصبح عدد سكان قرطبة فى الوقت الحاضر 42،000 بعد أن كان مليوناً أيام الحكم العربىِّ؛ ولم يبقَ من مدن ولاية شَلَمَنقَة، التى كان عددها أيام الحكم العربى 125 مدينة، سوى 13 مدينة.

E-mail: M_shawaf@outlook.com

Website: http://mohamed-elshawaf.blogspot.com/

The book page on Goodreads: http://www.goodreads.com/book/show/18049720

(فى صفحة الكتاب على جودريدز، كل التحديثات المحتمل إضافتها للكتاب مُستقبلا، من خلال رابط التحميل)